

١

رکة بسمرک

١٨٧١-١٨٩٠

لم يكن تأسيس الامبراطورية الالمانية الحديثة مجال من الأحوال مسألة
داخلية فحسب فان المرء خليق اذا هو ففكر قليلا في الماضي واستحضر في
أسطر قليلة مصائر الشعب الالمانى منذ ولت العصور الوسطى ليمثل : تمزق
عصر الاصلاح ، وشقاء حرب الثلاثين السنة الذي لا حده ، وكيان
الامبراطورية القديمة الاجوف الصوري ، ومعارك فريدريك الأكبر الهائلة
التي طالما تملكها اليأس في سبيل وجود بروسيا ورفعتها ، وعصف حروب
نابليون ، ثم ذلك الاغفاء في النصف الاول من القرن التاسع عشر يكتنفه
الغموض والاغفاء . نقول اذا وضع المرء هذا الذي ذكرنا نصب عينيه فانه
خليق أن يذكر في الحال أن حادث ١٨ يناير ١٨٧١ كان خلقا جديدا هائلا
في حياة أوروبا السياسية . فانه سرعان ما اتحدت وتضامت تلك الصورة أو
ذلك الهيكل المتفكك الذي حكم عليه قرونا أن يظل ضعيفا واهنا ، وأصبح
كتلة متراصة في خاتمة المطاف بالحرب البروسية الدنيارية عام ١٨٦٤
والنزاع البروسى النمساوي عام ١٨٦٦ والصدام الالمانى الفرنسى عام ١٨٧٠ -
١٨٧١ . وحالت فكرة « المانيا » التي لم تكن تحيا الا في مخيلة الشعراء وفي أمانى
المفكرين السياسيين حقيقة واقعة دفعة واحدة اذ نهضت في قومة واحدة قوية
وسط أوروبا الواهن المنجل وأصبحت بين يوم وليلة دولة عظمى . وهذا
انقلاب - اذا اعتبرناه من الوجهة السياسية - كالاتقلاب الذي يحدثه من
الوجهة الجغرافية نشوء سلسلة جديدة من الجبال . انقلاب اضطرت معه
الدول الأوربية التي اعتادت أن لاتؤبه بالارض الواقعة « بين الماس والميمل ،
والاتش الى البلت » بل التي اعتادت أن تؤثرها على غيرها في استخدامها ميدانا
للقتال - وأرغمت دفعة واحدة على أن تحسب لألمانيا حسابها فتعتبرها من
أندادها ، وتطيقها - وهي حديثة النعمة - في طائفة الدول العظمى المكرمة .
وهذا المركز الجديد كله والذي كاد أن لا يلتقى من أحد ترحيباً يرجع الفضل
فيه الى عبقرية بسمارك السياسية وعبقرية مولتسكه العسكرية . فقد كان بمثابة

ثورة كبرى في أوروبا القديمة التي كانت تدخل في دور من الزمن كان فيه حكام أوروبا هذه يعملون بهمة على اقتسام بلاد الكرة الأرضية الأخرى . فتأسس الامبراطورية الألمانية الحديثة لم يكن اذن غير منتظر فحسب بل جاء أيضاً متأخراً جداً . وهذا كله كان من شأنه طبعاً أن يحف ذلك المولود الجديد من الساعة الأولى ومن جوانب كثيرة بالمسكاره .

لم يستبن الاخطار أحد كما استبانها خالق هذا الكائن الجريء : البرنس أوتوفون بسمرك . ولقد يسع المرء أن يقول ان الخوف من هدم البناء الذي شاده بهذه السرعة العجيبة كان المحرك لسياسته كلها بين ١٨٧١ - ١٨٩٠ . وقد يبدو هذا غريباً من سياسى يصرف الأُمور لكنه برغم ذلك - أو بعبارة أصح ، من أجل أنه سياسى يصرف الامور - يطابق الحقيقة . فقد كان منذ تولى منصب مستشار الريخ الى أن غادر هذا المنصب يضع نصب عينيه بلا انقطاع احتمالات السوء وامكان تألب الامبراطوريات الأخرى على ألمانيا ، فكان لا ينفك يرى في « كابوس الائتلافات » - كما كان يسميه - ذلك الشبح الذي لم يذق طعم الراحة في مصارعتة . كان يلم بنقط الضعف المختلفة التي تلازم أمة واقعة وسط قارة ، أمة من اليمين واليسار ، من الشرق والغرب مفتوحة الحدود ، معرضة دائماً لسطو جيوش الغزاة الاجانب كما ينبتنا التاريخ . وقد كان أبدأ على ذكر من تلك التجربة المرة التي شهدتها فريدريك الأكبر ، ونعني بها : محالفة فرنسا والنمسا والمجر والروسيا . كان يعلم ان دولتي الغرب . انكثرا وفرنسا قاتلتنا في حرب القرم جنباً الى جنب تقريباً مع مملكة الطونة وفوق هذا كان يعلم كل العلم ان جارته الغربية المغلوبة ما كانت لتتسلى عن الهزيمة التي لحقت بها ، وأن الامة الفرنسية التي جرحت في أشد مواضعها حساسية أو بعبارة أخرى أصيبت في حب الشهرة ، كانت تفكر في الانتقام لانها أضاعت الازاس واللورين فحسب بل لاسترداد ما فقدته من السيادة في القارة أيضاً . فلقد كانت « الاقاليم » التي استولى عليها الخصم الألماني في

الجهة الأخرى من الفوج - رمزا لتلك الرغبة الخفية : رغبة السعي الى السيادة من جديد . وكان الجرح أغور مما كان يبدو في الظاهر : فتمتد قاست فرنسا أشد ما قاست من ذلك الانقلاب الأوربي الذي أسلفنا وصفه فلم تعد تقوم بالدور الأول الذي كانت تقوم به فيما مضى من الزمان وباتت تترصد لكل فرصة يمكن اقتناصها للخروج من مركزها السياسي السيء . وهنا كان المصدر الأخير لكل الأخطار التي أسلفنا الكلام عنها .

ونحن اذا محصنا ما أداه بسمرك في ميدان الدبلوماسية بهمة لا تعرف الكلال الفينا على الفور أن همه كله كان موجها الى التطلع على تقط الضعف التي ألمعنا اليها والتي كانت تكتنف الامبراطورية الألمانية الجديدة . لكنه كيف كان يعمل لهذا ؟ وأية آراء جوهرية كانت توجهه ؟

ولنبداً بالنقطة الأخيرة وبعبارة أخرى بفرنسا فنثبت ما يلي في شيء من الإيجاز : كان همه منذ اليوم الأول لعقد الصلح أن يتخذ حيال باريس موقفاً دقيقاً كيلا يلهب شعور الفرنسيين القومي المكوم في غير ماداع . فكانت الفكرة التي طالما قال بها المسكريون وحثوا عليها في مختلف المناسبات ، فكرة اشعال نار حرب جديدة تحول دون تقوي الجارة المعادية تقويا سريعاً أو بعبارة أخرى ما كانوا يسمونه بالحرب المنعمية — لا تلقي هوي في نفسه ولا تصادف الا الاعراض . فهو لم يكن يعتقد خفسب بأن هذه السبيل لا تكسب المانيا شيئاً بل كان يخشى أيضاً أن حرباً كهذه كانت خليقة أن تجر على المعتدي خصومة الكثيرين في كافة نواحي العالم . وهذا الرأي بعينه أقره الامبراطور غليوم الأول في يوم ١٦ مايو سنة ١٨٧٥ إذ أوردته في حاشية علق بها على مقال كان يرى صواب اشعال تلك الحرب المنعمية في وجه فرنسا قال : انه لكي تنتهي الحروب بالنفوز يجب أن يولى المهاجم عطف الناس والامم ممن نبلت مقاصدهم وان يلقي من خاض الحرب باغياً غضب الرأي العام . وهذا كان سر الحماسة التي اضطرت في المانيا عام ١٨٧٠ فان من يلجأ الى السلاح بلا مبرر لا بد أن

يهيئ على نفسه نائرة الرأي العام . انه لن يجد حلفاء أو محايدين يتمنون له
السلامة أو محايدين ايا كانوا . بل كل ما هو خليق أن يلقاه هم الخصوم .
كان بسمرك يسعى بحسابه الواضح الى صرف مطامع فرنسا الى الخارج
بتشجيعها على طاب المستعمرات وبخاصة بمدسنة ١٨٧٥ عند ما وفتت باريس
الى الحصول على تأييد لندن و بترسبورغ لها من الوجهة الدبلوماسية في
مناهضة ما كان ينسب الى المانيا من نيات الاعتداء . ولقد رفض بسمرك في
سنة ١٨٨٤ ما طالته به ايطاليا من الوقوف في وجه الفرنسيين في سرا كس
إذ أجاب بقوله : ان الاحساس بأن المانيا لا تريد الاحتفاظ بمنز و ستراسبورغ
فحسب بل تنفس على الفرنسيين امكان البحث عن عوض لحدود الرين فيما وراء
البحار . الاحساس بان فرنسا تجد ألمانيا أبداً عقبه في طريقها قين بأن يقوي
جانب حزب الانتقام حيالنا ويزيد في بغضاء الفرنسيين لنا ونشاطهم ضدنا ،
قين بأن يجعل بنشوب حرب فرنسية جديدة لا أعلم وقتئذ أي فائدة يمكن
أن نجنيها اذا انتهت بفوزنا . فان حرباً كهذه ولو انتهت بالفوز ستكون مصاباً
كبيراً . ولست ممن يمكن أن يأخذوا على عاتقهم تبعه السعي الى دخولها . « هذه
اعتبارات أساسية كان يسترشد بها مستشار الامبراطورية وتهديه الى حجة
الصواب في دائرة عمله السياسي الخارجي : فالمانيا لم تكن تريد من فرنسا شيئاً
إذ كان بسمرك يبغى أن يعيش مع الجمهورية في سلام ، وكان يتمنى لها الخير
فيما اتبعته في الخارج من سعي . على انه لم يكن أحد ينمى أن باريس كانت
تحن الى الاقتصاص فلم يكن ندحة عن اتخاذ كل ما كان من شأنه أن يحول
دون تحقيق هذه الرغبة .

ولقد وجد بسمرك أن أعظم أمان هو في عقد المحالفات مع الدول
الآخري حتى يقطع على فرنسا في القارة الطريق الى غرضها الذي كانت تخفيه .
فسعى أول ماسمى الى العناية بأن يجد الخصم الابواب في فينا و بترسبورغ
مغلقة في وجهه لانه كان يتحاشى أن يعود الائتلاف الذي كان يتربص

بفريدريك الأكبر الدوائر ومحاول القضاء عليه . كان يتجاسى الائتلاف بين فرنسا وروسيا والنمسا والمجر . ولحسن الحظ وقع في مملكة الطونة في أواخر سنة ١٨٧١ تبدل حاسم من الناحية السياسية ، فقد تولى الكونت يوليوس اندراسى وزارة الخارجية بدلاً من الكونت فون بويسن الذي كان يبدأ على تحقيق خطة ينبغي بها سيادة النمسا في داخل ألمانيا ، وولى وجهه شطر الجنوب المشرقى لاجل الشمال وبعبارة أخرى نحو البلقان يسمى فيه الى أغراض جديدة لبلاده . فتفاهم بسمرك مع اندراسى لساعته على تآزر الامبراطوريتين في العمل . ثم خطب في نفس الوقت ود روسيا فلتقى من اسكندر الثاني تجميذا للفكرة واغتباطاً بها . وبذلك تم في سنة ١٨٧٣ الاتفاق المسمى بحلف البراطرة الثلاثة الذي وعد على أساسه عواهل ألمانيا والنمسا والمجر وروسيا بأن يتفاهم ثلاثتهم اذا تعرض سلام أوروبا للخطر وان لا يعقدوا اتفاقات في أية جهة أخرى . وبعد مرور ثماني سنوات أي في ١٨ يونيو سنة ١٨٨١ زيد في متانة الاتفاق فجعل معاهدة حياد تتضمن النص على أن يضمن لكل من المتحالفين حياد صديقيه إذا دخل في حرب مع دولة عظمى . وقد دل مستشار الامبراطورية نفسه على قيمة هذا الاتفاق بقوله : لما كان القيصر اسكندر من الملوك الذين يعول على كلمتهم فانه يحق لنا أن نضمن استتباب السلام مع جاريتنا (النمسا وروسيا) سنين . وفوق هذا فان الخطر من ائتلاف فرنسا وروسيا أصبح بالنسبة لألمانيا منتفياً انتفاء تاماً كما أصبح اتخاذ فرنسا حيلانا موقفاً سلمياً أمراً مضموناً . هذا الى أن ما ارتبط به قيصر (روسيا) الشاب نحونا من شأنه أن يفسد محاولات حزب الحرب الروسى المعادى لألمانيا في التأثير على قراراته « وهنا أيضاً يبدو لنا واضحاً جداً ذلك الباعث الذي كان يدعو الى الحماية من خطط الهجوم الفرنسية .

على أن بسمرك لم يكتف بالكتلة التي خلقها وسط أوروبا طلباً للسلام ، بل زاد عليها حائطاً خارجياً قويا اذ وقعت في فيينا في ٢٠ مايو ١٨٨٢ معاهدة

دفاعية بين المانيا والنمسا وايطالية بناء على سعيه فنصر فيها قبل كل شيء على انه اذا اعتدت فرنسا على المانيا او ايطالية دون مسوغ هبت لنصرة من يعتدي عليه كلتا الحليفتين الاخرين . وبذا أوصدت أبواب روما أيضاً في وجه طلبات التحالف الفرنسية . واذا زدنا على ذلك ان مملكة الطونة عقدت مع رومانيا في ٣٠ أكتوبر ١٨٨٣ معاهدة دفاعية أيضاً تضمنت تصريحاً خاصاً يسند المانيا ، تبيننا عظم النطاق الذي بلغه بسمرك بمساعيه من أجل أمن المانيا .

لقد كانت فرنسا في الواقع منعزلة ولم تكن ثمة أية فرصة ظاهرة يمكن أن

تنتهزها لتحقيق أطماعها في استرداد سيادتها في أوروبا فقد أقيم لمداومتها سد لا يمكن أن يفكر في إقامة أقوى منه في القارة . وليس شك في أن سعي بسمرك في حماية الامبراطورية الالمانية الجديدة من الاخطار التي كانت تهددها بلغ حوالى ١٨٨٥ أقصى ما يمكن من النجاح . فقد أدرك مستشار الامبراطورية مبتغاه في المحافظة على السلام بصورة بديهة اذ أصبح من الواجب في حينها نشأ خلاف أن تسمع كلمة برلين الفاصلة وبات في امكانها أن تدرأ أسوء الاحتمالات . وهكذا حالت سياسة الدفاع سياسة عمل فعال للمحافظة على الحالة القائمة ، فلم تم الامبراطورية الفتية وحدها تحت تلك القبة التي أظلمها بالمعاهدات ذات المناحي العديدة والمعقودة بين المانيا والدول الاجنبية ، بل نمت أوروبا نفسها لانها صيغت من كل مايزعزعها : ومن خلق هذا المركز العام ؟ خلقه مخلوق سنة ١٨٧١ الذي أصبح بفضل بسمرك وهمته العالية وبفضل غريزته السياسية وما تبذره هو المصرف للامور الجاعل من مصلحته الخاصة وهي السلام قانوناً تآمر بأمره القارة . وهي حالة لم تكن من السيادة التي تستعبد الغير في شيء ولكنها كانت زعامة خير الجميع

ولقد أصابت جريدة بول مول غازيت الانجليزية كل الصواب حين كتبت عام ١٨٨٣ بمناسبة ذكرى سيدان تقول : ان تفوقاً كالذي تستمتع به المانيا وبالصورة التي يقوم بها ، فريد في بابه . فان مثل هذا النفوذ لم يتم لا إنجلترا

عقب ووترلو أو فرنسا عقب سولفيرينو أو القيصر نيقولا بعد أن أخذ الثورة المجرية . وما كان أغلب من عاشوا بين تقاليد التوازن الاوربي ليظنوا ممكناً أن توضع سلطة هائلة كهذه في أيدي حكومة واحدة دون أن يصيب السلام أذى كبير ، وأن يمس استقلال أوروبا وتتأثر رفاهيتها العامة . ومع ذلك فإنه ليس ثمة من رجل نزيه - بعد تجربة ثلاثة عشر عاماً - يستطيع أن يشك في أن تفوق ألمانيا في مجموعها كان أسلم عنصر في الحالة الاوربية . اجل ان السياسة الالمانية ارتكبت أخطاءً إذ الألمان كغيرهم بشر ، ولكن وجود هذه القوة السامية العظيمة في وسط أوروبا كان خيراً أوروبا ، ولو ضمن أن تستخدم هذه القوة في المستقبل بنصف الحكمة والتحفظ اللذين استخدمت بهما الى الآن لما كان من لا يجب دوامها - فيما عدا تلك الطائفة القليلة من السياسيين الفرنسيين - سوى نفر قليل . ذلك انه ندر أن استخدمت قوة هائلة كهذه هذا الاستخدام الحسن .

ان نظام المحالفات الذي سار عليه بسمرك لا يمكن أن يدرك قيمته كلها الا مستعرض لما كانت عليه الدول من تنافر حال هذا النظام دون انفجاره . فقد كان هنالك ذلك التنافر بين المانيا وفرنسا مما أسلفنا بيانه . وكان فوق ذلك ما بين ايطاليا والنمسا والمجر مما يبدو للناظر أقل أثراً . وأهم من هذا وذاك وأكبر أثراً ما كان في ذلك الحين من تنافس روسيا وانجلترا على النفوذ في آسيا . على أن أخطر جرح في كيان أوروبا السياسي كان إذ ذلك هو البلقان الذي اتجهت اليه أنظار مملكة الطونون بعد إذ تولى خارجيتها الكونت أندراسي كما أسلفنا القول . ففي تلك الناحية ظهرت روسيا بمطالب واسعة النطاق إذ كانت تسعى من أمد طويل الى امتلاك البوسفور والآستانة عاصمة الدولة العلية لتييسرها الخروج من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط . فكانت فيما تؤيد الباب العالي وكانت انجلترا تناهض كل تقدم لكبرى الدول السلافية نحو الآستانة لان هذا التقدم كان قميناً أن يهدد الطريق الى الهند .

أما روسيا فجعلت تسمى سميها بين الشعوب السلافية التي كانت تحت حكم الهلال وتيجري وراء مصالحها . فلشبت في سنة ١٨٧٧ الحرب بين تركيا وروسيا . وكان من جرائها خصومة حادة بين فيينا وبترسبورغ ولندن . وهنا توسط المستشار الامبراطوري الألماني في مؤتمر برلين صيف ١٨٧٨ فوفق بين الخصوم . فأخذت روسيا بيسارابيا واتسع نفوذها في أرمينيا وحصصت النمسا على حق احتلال البوسنة والهرسك وبهذا حلت فترة هدوء لم تلبث أن اندلعت بعدها النار في امارة بلغاريا التي كانت خلعت عن عنقها هي وصربيا والجبل الاسود حكم الاتراك . فقد كانت بلغاريا حينذاك منطقة نفوذ لامبراطورية القيصرية . غير أنه سرعان ما طمغ الروس في أن يكونوا ساداتها يصرفون مصائر شعبها الذي حرروه على النحو الذي يشاءون . فشجرت الخلاف بينهم وبين أميرها اسكندر فون باتنبرج الذي كان لا بد له في آخر الامر من أن يلين لضغط بترسبورغ عليه . ولقد انتهزت النمسا فرصة الفوضى التي لومت هذا الحادث لاثارة الأتس على روسيا فاتسع الخرق بين مملكة الطونيه وأمباطورية القيصرية في صورة مقلقة حتى اذا جاء وقت تجديد المحالفة الثلاثية الامباطورية أبت بترسبورغ هذا التجديد فكان هذا الالباء صدمة صدعت بناء المعاهدات الذي شاده بسمرك وجعلت من الحال أن يجمع نظام الارتباطات المتبادلة ما بين الدولتين المتناظرتين في البلقان رأساً . وهكذا كان من الحتم أن تتبدل سياسة الامباطورية الالمانية تبديلا حاسما بعد إذ ظل طوال وقته يعمل على أن يبتعد بألمانيا عن المنازعات فلم يكن مع ذلك محيص عن أن يزداد عداء الدوائر الروسية الوطنية لبرلين . ولقد عرفنا الآن قادة الدولة السلافية العظمى العسكريين كانوا مذ قام مؤتمر برلين يفكرون في الاستعداد للدخول في حرب مع ألمانيا فكان بسمرك مضطرا ازاء هذه الحالة التي أعرب عنها جانب كبير من الصحف الروسية بما كان ينشره من تحريض صر الى التخلي عن حله البديع الذي أوجده في النصف الاول من سني

العثمانين . على انه وجد من هذا المأزق مخرجاً ممكنه برغم كل شيء من تأمين المانيا وضمان صداقة الخصمين المتنافسين في الشرق الادنى . واذا كان لم يستطع الجمع بينهما فقد استطاع على كل حال أن يتفق مع كل منهما على انفراد ليحضى من وراء ذلك كلمة نافذة هنا وهاهنا . فاستطاع بهذه الصورة أن يكون مرآة يعمل ذات اليمين وذات الشمال حائثاً هنا وملطفاً هناك فكان كالمكبوت إذ يمتد نسجه من حوله وإذ تتجه خيوطه ووجهات متعارضة . وهكذا وصل الى عقد معاهدة ضمان مع الروسيا بينما قد بقيت النمسا في المحالفة الالمانية النموية المحقودة عام ١٨٧٩ وفي الاتفاق الثلاثي تسندها اتفاقية ايطالية انكليزية في البحر الابيض المتوسط .

لقد عقدت معاهدة الضمان في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٧ لمدة ثلاث سنوات عقب مفاوضات طويلة ، وقد نصت في جملتها على ما يأتي : تمهدت المانيا والروسيا أن تلتزم كلتاها الحياد إذا تورطت احدهما في حرب ، وأعطيت الروسيا الحق في نفوذ حاسم متفوق في بلغاريا والرومالي الشرقي ، واعتبرت مضائق الاستانة كأنها مغلقة وفاقاً لما تقرر في مؤتمر برلين حلاً لهذه المسئلة على أن تقنع تركيا بأن لا تعمل استثناءات ما من هذا الحل لمصلحة دولة أخرى . وقد تضمن ملحق سري خاص النص أيضاً على أن تؤيد المانيا الروسيا في اقامة حكومة شرعية في بلغاريا وأن لاتوافق على ارجاع الامير فون باتنبرج . وقد تمهدت المانيا فوق ذلك أن تقف على الحياد في حالة ما إذا رأى قيصر الروسيا ضرورياً أن يتولى بنفسه الدفاع عن مدخل البحر الاسود حماية لحقوق امبراطوريته وأن تؤيد الاجراءات الروسية تأييداً أديبياً وديبلوماسياً . ومن يفحص هذه المعاهدة تبده لاول وهلة التساهلات العظيمة التي تساهل فيها بسمارك لامبراطورية القياصرة والتي كانت بالامقابل تقريباً من ناحية بطرسبورج . فانه جدير بالملاحظة بصفة خاصة ذلك النص الذي لاتلتزم بموجبه الحيطة المتبادلة في حالة نشوب

حرب ضد النمسا وفرنسا اذا كانت هذه الحرب قد أثارها اعتداء من جانب أحد الفريقين المتعاهدين . فهنا قد ضحى المستشار الامبراطوري الالمانى حتى بجانب من سياسته التى توخى منها الامان الى ذلك الحين وكل هذا ليحمل روسيا على التعاقد معه . لقد فعل ذلك وفى حسابه أن يقبض به على النمسا والمجر أهم خصماء صديقه السلافية . ومن يضع نصب عينه مسلك بسمارك خيال مملكة الطونة يستين على الفور صريحى معاهدة الضمان . فلقد فعل فى تلك المعاهدة ما من شأنه أن يقوى ظهر فيينا قبالة روسيا . وقد تم هذا بمساعيه بذلك الاتفاق الانكليزى الايطالى المفقود فى ١٢ فبراير سنة ١٨٨٧ الذى تعهدت انجلترا وايطاليا بموجبه بالمحافظة على الحالة الراهنة فى البحر الابيض المتوسط والمناطق المتاخمة له وكذلك فى البحر الاسود . وقد انضمت النمسا فى ٢٤ مارس الى هذا الاتفاق أيضاً فكسبت بذلك جانب بريطانيا المعظمى تأييداً لمصالحها المناهضة للتوسم السلافى فى الشرق الاذنى ووقفت المانيا عن كسب تقناهر الفريقين وتؤيد رغبات المتنافسين . ومثل هذه السياسة - سياسة اليد الخفية كما كان يصفها صاحبها نفسه - لم تكن بحال من الاحوال خديعة تنطوى على الغدر بالنسبة لروسيا أو النمسا بل كانت أسلوباً طريفاً يتفادى به من انقلابات اوروبية كان يمكن أن تصبح خطراً على الريخ الالمانى . وقد طاق هذه الانقلابات فى تكوينها أن برلين استطاعت دائماً أن تستخدم نفوذها الملطف هنا وهناك . فلو وقع التصادم على الرغم من ذلك لكان المستشار بحيث يستطيع أن يقرر نتيجة القتال وأن يحسم النزاع بتدخله تدخلاتى هذا الصديق أو ذلك شر العواقب . وهكذا أجاد بسمارك التدبير بعمله الجديد الذى توخى به الامان .

على أننا لا بد أن نسلم فوراً بأن حل سنة ١٨٨٧ بالنسبة للحل السابق البديع - ونعنى به نظام المعاهدات - يدل على خطوة واضحة الى الوراء . فقد اضطرت السياسى الحكيم قوة الحوادث والتخرج المتزايد من الحصومات

لاوروبية أذ يستبدل بمركزه الاول المتحكم مركزاً ثانياً اقل ثباتاً من الاول
لوعزته المؤكدة ، فترأكت الاخطار سنة فسنة ، وجعل البلقان — جرح
القارة الذي كان يدمى جانبها الشرقى — يكابد التهاباً يزدادحدة على مرالايام
كما اخذت الجامعة السلافية التي كانت تبغى سيادة روسيا على الشعوب
السلافية في جنوب اوربا الشرقى ترفع رأسها ويزداد الخطر من هذا الارتفاع
شيئاً فشيئاً . وقد كانت تتحرك في فرنسا في نفس الوقت تلك القوى التي
كانت تبغى انتشار الجمهورية من عزلتها وتسمى الى الانضمام إلى دولة
القيصرية ، فكانت باريس اثناء المناوضة في معاهدة الضمان تتوسل حتى
بالوثائق المزورة لتفسد ما بين بطرسبورغ وبرلين . وهذه كلها كانت سحجاً
في الافق اقلقت بال بسمرك على الدوام ، إذ كان يعلم ان من المشكوك فيه
« تسيير القيصر اسكندر بعد ذلك إلا برابطة معاهدة » فبحث في نفس
السنوات الاخيرة التي كان فيها زمام الحكم في يده وراء رابطة جديدة تقى
بلادها شر الاحتمالات المظلمة .

وكانت انجلترا همزة الوصل التي كانت لاتزال متاحة له . وقد رأينا
كيف وفق المستشار الى دفع هذه البلاد الى المحالفة الثلاثية بتلك المعاهدة
الخاصة بالبحر الابيض المتوسط والمعقودة بين ايطاليا والنمسا . وقد اعتبر
بسمرك هذا خطوة عظيمة الى الامام إذ كان ابنه هربرت الذي كان إذذاك
وزيراً في وزارة الخارجية يرى « ان استطاعتنا ربط انجلترا الى هذا الحد
كانت توفيقاً يجب ان لا نستصغر شأنه » على انه مما لا ريب فيه ان المستشار
كان ينتوى السير الى ابعد من ذلك . واليك علاقته بانكلترة في خلال اشتغاله
بتصريف امور السياسة الألمانية نعرضها بايجاز : كان يسعى الى الانضمام الى
دولة الجزر قبل كل شيء اذا ما توجس خيفة من فقدان روسيا . فقد كان
تحالفه مع النمسا وايطاليا وحدهما لا يكفيه إذ كان من رأيه ان المانيا بحاجة
الى الاستناد الى دولة عظمى اخرى للمحافظة على مركزها . وهذه الدولة
(٢-٢)

اما أن تكون روسيا أو بريطانيا العظمى . وقد بداله باديء الرأي أن يسير مع الاثنتين لكنه بعد ذلك لما اهتمد عن مناهضة الانجليز جعل يطرق باب لندن كلما أتعنته بطرسبورغ . ولذا غي سنة ١٨٧٦ أثناء فلاق البلقان بالسمي لدى الانجليز وراء معاهدة دون أن يصل الى غرضه طبعاً . ولما أعربت الصحف الروسية سنة ١٨٧٩ عن استيائها من نتيجة مؤتمر برلين بلهجة صرة هاود قرع ذلك الباب لكنه عاد فقطم المفاوضات التي كانت تبدو هذه المرة خيراً من سابقها لما ان توقع ان هذا سيفير قلب روسيا بعسورة دائمة . ذلك انه كان يتحاشى أن يعقد مع الانجليز اتفاقاً ما يمكن أن يجبر على ألمانيا خطر التورط في حرب انجليزية روسية . وقد أبان صراحة في كتاب بعث به الى اللورد سالسبورى السياسى الانجليزى بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٨٨٧ انه لا يسهه ان يجعل بلاده سيفاً لبريطانيا العظمى في القارة . فانه كان يفكر في تفاق يطاق لكل فريق حريته ويريد أن يظل هنا وفي كل مكان بميداً يرقب عن كشب . ومن يرد أن يلم بوجهة نظره في تسوية هذه المسألة أوضح ماتكون فليرجم الى طلب التحالف الذي عرضه على انجليزية سنة ١٨٨٩ فقد كان خوفه من إمكان تلمص روسيا برغم معاهدة الضمان زائداً إذ ذلك فأمل أن يصل مع لندن أخيراً الى نتيجة فكلف الكونت هتسفلد السفير الالماني لدى التاميز أن يقترح عل اللورد سالسبورى عقد معاهدة بين ألمانيا وانجليزية الغرض منها الحيولة معاً دون اعتداء فرنسا . وقد جاء في هذا التكليف « ان فكرتي هي ، اذا أقرها صاحب الجلالة ، أن تعقد بين الحكومتين الانجليزية والالمانية معاهدة تتعهد كلتاها بموجبها بمساعدة احدهما الاخرى اذا هاجمت فرنسا أياً منهما في خلال السنة أو السنتين أو الثلاث المقبلة ، وأن تعرض هذه المعاهدة التي تربط الريخ الالماني ، حتى ولو لم يصدر بها قرار برلماني على البرلمان الانجليزى للتصديق عليها وتبلغ رسمياً للرئيسستاج الالماني . واني اعتقد ان تأثير خطوة صريحة جريئة في هذا السبيل سيكون مروحاً مهدئاً لاني انجليزية وألمانيا وحدهما بل في اوربا بأسرها أيضا »

هذا ما كان بسمرك يسعى اليه ، واضح للعيان . فهو لم يرد بالاتفاق مع بريطانيا العظمى ان يرتبط معها في مناهضة روسيا . ذلك ان المانيا يجب وفقاً لرأيه ان لا تكون ابداً مخفراً امامها لحراسة المصالح الانجليزية في القارة الأوربية . فالسير مع بريطانيا العظمى بدأ بيد يجب ان لا يكون الا حيث تلتقى منافع الدولتين او بعبارة اخرى في السهر على فرنسا حتى لا يحكر سلام اوربا . وهذه مخالفة لمختمظ لفرقيين باستقلالها التام ولا تعرض ايأ منها لخطر الدخول في حرب لا تتفق وحاجات بلاده . على ان وزير خارجية الجزر البريطانية راوغ فلم يجب بلا او نعم بل ابدى اسفه لانه في تلك الآونة لم يسه ان يفعل اكثر مما فعل . والسبب الذي من اجله وقف هذا الموقف هو ان اقتراح بسمرك لم يطابق رغبات إنجلترا فان لندن كانت تأمل من السير مع احدى دول القارة نفس الذي اراد مستشار الريخ ان يتفادى منه . كانت تسمى وراء حليف تطلته وقت الحاجة على منافسيها في القارة وعلى روسيا قبل غيرها اذ ذلك . لانه عند ما طرق اللورد سالسبروري ابواب برلين في سنة ١٨٨٧ كان يريد ان يكسب المانيا الى جانب السياسة الانجليزية في الشرق الأدنى . وتلك السياسة كانت موجهة كما نعلم ضد روسيا . فلم يشأ بسمرك ان يسير في هذه السبيل واعلن رأيه صراحة قائلاً « ان سياستنا ترمي اذا مست الحاجة ، الى الاستمسك بالمحالفات التي تعرض لنا وتكون معينة لنا فيما اذا اضطرنا الامر الى محاربة جارتينا القويتين في وقت واحد » فمخالفة من هذا القبيل هي التي جرى وراءها في سنة ١٨٨٩

وان من يستعرض الجهاد الهائل الذي جاهده بسمرك لدفع الاخطار عن الامبراطورية الألمانية الجديدة القائمة وسط اوربا وينعم الفكر في تلك الاستحكامات التي اقامها حولها من المعاهدات التي عقدها مع الدول الأخرى ثم ليلاحظ مبلغ ما بذله هذا السياسي العظيم في اخريات ايام عمله من مجهود تذليل المصاعب المتراكمة التي كانت تكثف الحالة العامة ، وللابتعاد ببلاده

القائمة وسط القارة عن الورطات — اقول ان من يفعل هذا يصل دون أن يشعر الى أن يستخلص أنه حتى تلك المهمة العالمية أول مستشار للريخ الألماني لم تعد تكفي على مر الايام للتغلب على الاخطار التي كانت تهدد ألمانيا . وان تراجع عن محاولة البراطرة الثلاثة الى الاتفاق ذي الوجهين الذي عقده مع الروسيان النمسا والمجرتم محاولته عبثاً أن يكسب انجذرة الى صفه يدل كله بوضوح تام على أن الافق كان دأب التعجب ، فقد كانت الخصومات التي ألعنا اليها فيما سبق تزداد حدة من سنة الى سنة ، وكان الخرق يتسع على الدوام بين مملكة الطونة ودولة القياصرة . أما الدوائر الباريسية التي كانت تطلب الانتقام من وراء ستار فكانت قد انضمت الى حزب قوي يعمل للجامعة السلافية . في حين كانت انجذرة تنظر الى القارة نظرتها اليها في الأوقات السالفة أعنى في ضوء مطالبها المحددة بالكرة الارضية . وبالجملة فقد كانت الحوادث تختمر في كل مكان وفي طي الخفاء ابتغاء تغيير الحالة التي كانت قائمة اذ ذاك .

على أن بسمرك قد نجح بدهائه غير العادي في أن يحول الى اللحظة الاخيرة أثناء تسييره دفعة الامور في السفينة الألمانية دون وقوع تلك الاحداث العنيفة المضامة . فان الاحترام الهائل الذي كان يتمتع به في الخارج والذي أكسبته اياه شخصيته في خلال عشرين سنة قضاها في العمل الشاق لاجل السلام ، وذهنه الذاري الذي كان يخضع بحدته الاذهان ، ثم الثقة بخلوص طويته ، كل هذه كانت قوى لا تعدلها قوى أتاحت له على الوجه الذي كان يتوخاه في عمله نفوذاً حاسماً . وأهم شيء أن الشعب الألماني نما في كنف إدارته الموسومة بالاحتراس والتي حذاها الاعتداد فلزمتها لذلك الجرأة ونهض نهضة اقتصادية لم يكن ازدهارها هذا الازدهار مما يخطر بباله . ولقد كانت سنو العز الخارججي هي الاعوام التي ارتفعت فيها الصناعة الألمانية إذ المت حمى التقدم بأمة اولئك الحالمين السابقين فكأنها كانت تريد ان يدرك جيل واحد ما فاتها في عشرات بل مئات السنين الماضية ، فامتدت المدن في قلب

الريف وظهرت على سطح الارض المصانم في كل مكان وجعل التجار يتصل بأقصى المعمور . وحفز الالمان أيضاً حب التغرب والاندفاع اليه اندفاعاً اتخذ لدى الشعوب الاوربية شكلاً ثابتاً من حكم البلاد الاجنبية وامتلاك المستعمرات الواسعة . أما لدى الالمان فقد ظهر باديء الأمر في صورة التوسع التجاري ثم لم تلبث بعد ذلك أن رنت الدعوة الى امتلاك المستعمرات فيما وراء البحار لتهاجر اليها تلك القوى الزائدة عن حاجة البلاد . ولقد لبى بسمرك هذا النداء ولكن في شيء من الكراهية والمقاومة لان تفكيره كان منصرفاً الى أساس الرفاهية : الى مركز المانيا في أوروبا نفسها فكان يحس من نفسه ميلاً ظاهراً عن ذلك السعى الى الاغتراب وأخيراً رضخ لتلك الروح الجديدة وكان الفضل الاكبر في طلب كل المستعمرات التي امتلكت فيما بعد لمهوتته .

ان المأساة التي أصابت المستشار الامبراطوري الاول هي أن عمله الذي ابتدعه بيده ونعنى به الدولة الالمانية الجديدة ، تبدل تحت يده سريعاً ثم حال فجأة شيئاً لا يشبه خالقه . فقد قدر لحامي حدود الدولة الجندر أن يشهد كيف ان الامة التي لم ينصرف لحظة عن العمل لوقايتها قد اتسعت اطرافها الى ما وراء هذه الحدود ، وان قوى فتية لم يفهمها كما لم يفهم فكرة الديمقراطية الاشتراكية ، قد رفعت رأسها . فلقد تكشفت النهضة التي اوجدها فجأة عن اخطار باطنة لم يقو سلطانها الذي حالقه في السياسة الخارجية هذا النجاح العظيم على مدافعتها على مر الايام ، فبات هذا المجاهد الدؤوب وحيداً وتخلي عنه العصر الجديد الذي اوجده لالمانيا . وليس شك في ان هذا التطور كان ضرورياً لازماً لوماً مرأ كككل التطورات التاريخية لكنه لم يكن خطر العواقب بالنسبة لتلك الرجل الوحيد المصرف للامور فحسب بل كان كذلك بالنسبة للشعب الالمانى بأسره . ذاك ان المانيا التي خلقها كانت تعيش سياسياً على بطولته . وباعتبار كونها دولة الوسط والدولة ذات الجناحين

المعرضين وباعتبار كونها دولة عظمتى جاءت الى الوجود متأخرة ، كانت بحاجة الى بطولة كهذه ليكون لها بعد ذلك حظ الحياة . وبسمرك لم يخلف في المنطقة التى كان يعمل فيها ، في منطقة السياسة الخارجية ، تلاميذ حقيقيين فيما عدا ولده هربرت الذى خرج معه فهل كان هذا ممكنا ؟ وهل يقم عليه من أجله نوم ؟ وهل يسمع المبقرية أن تخلم على من حو لها من المتوسطين شيئا من شعاعها ؟ ليس من الهين الاجابة عن هذه الاسئلة اجابة عادلة . لكن الثابت وحده هو أن هذه الحقيقة الواقعة التى ألمعنا اليها كان معناها ، بالنظر الى أحواله المانيا الخاصة ، كارثة مزدوجة . ذلك ان الشعب الالمانى لم يكن يملك بمد تلك القرون التى تملكها فيها الاغماء والتمزق ، شيئا من الخبرة بشؤون السياسة الخارجية . وفي الوقت الذى كان المستشار المخنك يتولى قيادته اعتاد أن يلتقى بمقاليد فيما يتعلق بتلك الشؤون الى رئيسه آمنا مطمئنا . وهكذا كانت تنقصه كل غريزة سليمة لتفهم المصالح القومية في حين أن هذه الفرائز من تقاليد الامم الاخرى ولذا لم يكن الشعب فى جملة من يفهم حياته السياسية . وان خير دليل على هذا النقص الاسامى هو ذلك الحادث الباقي خزيه على الايام . هو أنه لم يحل حزب من أحزاب الريمستاج دون خروج بسمرك فى ١٨ مارس ١٨٩٠ بل لم يأسف له . ذلك ان أحدا لم يكن يعلم ما خسرتة الامة عند ما اضطر المستشار الامبراطورى الى تقديم استقالته الى الامبراطور غليوم الثانى فكان هذا الخطر خطر الجهل السياسى العام فى المانيا أعظم الاخطار التى كانت تهدد الدولة الجديدة جميعا . وبذا أتيج لتلك الاحداث المظلمة التى كانت تتربص لالمانيا خارج حدودها أن تتناقم بأسرع مما كان مقدرا لها وان تقوض ذلك الصرح الهائل الذى شاده الجبار العجوز .